بغداد والماء

شجون التواشج ومنظور في الإعمار والإستثمار والنماء

د.علي ثويني
thwanyali@hotmail.com

قدست الأمة العراقية الماء منذ الأزل وخصصت له آلهة وأرباباً، ونسجت على هداه روحانيات وهواجس وأعرافاً ،وتبدل الحال في فحواه من أسطوري إلى توحيدي ،وأمسى على هداه جوهر الحياة و"كل شئ حي" . فهاهو النبوت خلال الدهور يمكث في طقوس الماكثين من غابر الملك والنحل .. لقد أمست أصرة الصابئة المندائيين مشيمية مع الماء من خلال عقيدة الطهر والعماد والصب والورود والتندي. وهاهم (اللور الفيليون) في دجلة الأوسط بما جبلوا عليه من مكوث فكر سومر في سجاياهم ، بحيث أحتفظوا منذ القدم بعرف أختفى قبل عقود ،حينما خصصوا عروسا للماء تحتفي وتتوسل وتحث الوادي وقت (الخنياب) أي كساد تدفقه ،كي ينطلق ويهب الحياة العراقية مهوجانا للماء والنماء . كان أسم العراق لدى أجدادنا الآراميين (بيث نهرايا) أي بيت النهر أو بلاد الأنهر ، والعراقيون أهل هذا البيت وسدنته ،ومنها وردت التسمية اليونانية مترجمة عنها (ميزوبوتاميا) من مركب يعني بلاد(بين- الماء أو الأنهار) . وثمة نظرية قد عزت نشوء الحضارات والمدن في العراق تدعى نظرية الري(الهيدرولية) ،وتعود إلى (ويترفوغيل) ، أعتبر في سياقاتها أن مجاري الماء كانت سببا حقيقيا في نهوض الحضارات ، وكان أقدمها وأجلها ما نشأ بين الرافدين ، وأكد أن ظهور النظام المتشعب للأراضي المروية أعطى دفقا لتطور (ثورة المدن) ،وأن أنظمة الري كان لا بد وان تولد المدن والدولة (الاستبدادية) حتما من حيث الشكل والحضارة .ونعزو في السياق نفسه كما ذهب إليه "الحفري" الروسي (دياكونوف) ، من أن استغلال مجاري المياه في نقل الفائض من الإنتاج الزراعي وتسويقه إلى أماكن أخرى كان سببا في تراكم المردود ، ثم إزدهار المقايضة والبيع ، ثم نشوء حضارات المدن وفرض الحاجة للتدوين ،ثم أثر في تسارع إيقاع الحياة والتنظيم الذي أنعكس على رفاهية البشر ثم تداعى إلى تطوير طرز العمارة والفنون.

لقد ورد في الأساطير البابلية، بأن المدينة تستمد بقاءها من جريان النهر،وأدعوا بأن المدينة جاءت من إتحاد الماء والفوضى، فثمة وجود فوضى في البدء رافقه نوعان من المياه العذبة؛ منها (أبسو) والمالحة(تايمات). وفي هذا الوسط ولد لاهمو ولاهامو واصبح لهما أبناء سيطروا على السموات والأرض- آله السماء (أنو)،وآله الأرض والهواء(انليل)،وآله المياه (آيا) ،وربما لأن آيا صاغت فكرة النظام، فقد أثارت بذلك عداوة أبسو وتايمات، وتنتهي العداوة بحرب حطم فيها مردوخ (أبن آيا) غريمه تايمات.وربما يكون طوفان الماء (بصيغته العراقية) قد طغى على كل ثقافات الدنيا،وأخترق الأديان جلها، وما نوح أو (أوتو نبي شتم) إلا نبي عراقي أمتص من خلال منزلته لدى الخالق عز وجل سخطه و طغيان الماء بالحكمة والموعظة وحسن التدبير. وتداعى الأمر في الإسلام وأعتبر سر الحياة (وجعلنا من الماء كل شيء حي)، وتكرر ذكره في القرآن الكريم ٥٨ مرة، ورمزا للتطهر والوضوء وسمة الجنة وأنهارها هدية للمتقين، وأقترن بالغيبيات وأكتسب القدسية وخصصت له صلوات (الإستسقاء) ،وواشج في اللغة بين رمزية"الماء" و"السماء".

وأخترق حب الماء بواطن النفوس، حتى جاءت مدن العراق توشح ضفاف الأنهار،وكان نأيها عنه و"هو ماندر" يعد وبالا وفال خراب ونعيق غراب عليها، كما حدث لأور حينما هجرها الفرات فشكت واستغاثت ثلاثة قرون،ثم درست وطوى الزمان صفحتها ،لكنها مكثت عنقاء في مدونات التاريخ حتى أميط اللثام عن زهوها المائي. وحدث الحال عينه مع واسط حينما هجرتها دجلة مقتربة من الجبال قبل ثلاثة قرون.

وكتب تاريخ البشر بزهو عن بابل وفراتها على مر العصور، ثم بغداد ودجلتها حينما أمست إبتداء من القرن التاسع الميلادي أم الدنيا و سرتها ،وحدث أن قطنها ما يقارب المليونين من النفوس ،وهو أمر إستثنائي ورائد في تواريخ الدنيا، بعدما أمسى ماء دجلتها وسيلة إنتقال الناس ومصالحهم بين شقيها و أرباضها ومحالها وبساتينها وما يورد لها ويصدر منها.كان ذلك سمة عصر لم يتوفر على قطار ولاسيارة، فكان الماء وسيلتها وغايتها،حتى توارث البغداديون تلك الآصرة الأزلية في سجاياهم، ومكث فيهم شغفا لصفحة الماء الرقراق.

وكانت تحيط ببغداد المدورة أو مدينة السلام أو المنصور(في محلة الشالجية اليوم) شبكة قنوات مائية نقلت إليها الناس والمتاع، وعدلت من سطوة قيظها اللهاب . و كان إختيار موقعها، ليس بسبب وسطيته وحصانته فقط ، وإنما لوجود شبكة نسيجية للترع والسواقي حيكت واخترقت موقعها. ويمكن أن يكون المبرر البيئي وراء اختيار أبو جعفر المنصور لموقعها ،لاسيما أنه ترعرع في الحميمة على تخوم نهر الأردن وفي أفياء مدائن فارس المعروفتين باعتدال درجات الحرارة فيهما ،محاكاة لجو بغداد . و طوقت بغداد المدورة شبكة من الأنهار، منها نهر (عيسى) القادم من الفرات جنوبي الأنبار، و يتفرع منه نهر (الصراة)، ثم نهر (صرصر) القادم من فوق المدائن على دجلة، ونهر (الملك) الذي يصب جنوبي المدائن ، ثم الى الجنوب نهر (كوثي) ونهر (الصراة الكبرى) وغير ذلك من السواقي الرابطة التي ذكرها ياقوت الحموي في (معجم البلدان)، ولعل هذه الشبكة هي التي أدت الى توازن بيئوي بين اليابسة والماء، وأسهمت في تنشيط حركة تيارات الهواء في أجزاء المنطقة،والتي تعتبر في حد ذاتها غاية تخطيطية ، تناسب العمائر في المناطق الحارة الجافة والرطبة على حد سواء.

إن ما يثير الحيرة في النفوس اليوم، بان حرارة قيظ بغداد أصبحت لا تطاق ، حتى فاقت مثيلاتها في صحراء الجزيرة العربية. وهذا يعني أن تغيرا ما قد طرأ ، ونعزوه إلى اختفاء شبكة الأنهار المطوقة لها ،ناهيك عن زيادة الكتلة البنائية وشوارع القار على حساب المساحات الخضر، بالإضافة لتغير كنه مادة البناء المستخدمة في بناءات اليوم،التي لم تعد طينا وطوبا أو آجرا(طابوقاً) لا يعنف البيئة العراقية ويناقض طبعها .

و نقلت الأخبار بأن أبا جعفر المنصور،قد ضاق ذرعا بالسوقة والمتسولين ورام الأمان لبوابات مدينته،فأمر بان تزال الأسواق منها عام ١٥٧هـ- ٧٧٣م، وتنقل إلى الكرخ المتاخم، وهكذا رسم خطة لبناء الأسواق بين قناة الصراة وقناة عيسى، وهذا يعني تخطيطيا، بأنه أستثمر المسافة بين النهرين لتكون مخصصة للبناء التي سيلعب ماء القناتين دور طريق التموين بالمراكب لها ،وهي مرتبطة أساسا بماء دجلة التي تجلب لها السلع من مسافات أبعد. وعندما انتقلت المدينة إلى الرصافة في عهد المهدي العباسي ثم الكرخ تباعا،وهجرت المدينة المدورة ، لم تبتعد خططها في عمق البر المتاخم، حتى بقيت مسترسلة منسابة مع إنسياب النهر وتمتد من الكاظمية(قطر بل الآرامية أومقابر قريش العباسية) حتى الكرادة (كلواذه الآرامية)، تتميز شواطئها بمسنايات الذوات ،ومخارج لشوارع تصب وتنفتح على (شرائع) النهر لعامة السكان،وكان كل زقاق في المدينة له (شريعته) النهرية التي يتنفس منها ،بما الغى طبقية النهر لسكان المدينة،ومكث مشاعا لساكنيه مثلما نتمناه لقادم الأيام.

وهكذا كان إنتقال الناس في أرجاء السواد سلسا ،وكان لجهابذة النهر مسالك، حتى يذهب بعض المعمرين إلى أن البغداديين أموا بحر النجف بأفلاكهم، ، وكانت توصل سفن الهند لترسوا على جنباته ،لتربط النجف بالعالم،وتجلب عطايا سلاطينها(البهرة) الذين أغدقوا عليها العطاء ،وجلبوا حتى موتاهم ليسجوا في واديها .

يقول جمال حيدر في كتابه بغداد، بأن (شرايع) بغداد هي رئة المدينة وأكسير حياتها ومهابط نذورها. فتنسل تلك مصطفة على الضفاف إبتداء من الباب الشرقي جنوبا حتى (شريعة) نجيب باشا شمالا. وتمر بشريعة السنك المحاذية لشريعة المربعة المقابلة لمقهى حمادي،ثم تليها شريعة سيد سلطان علي التي أضطلعت بميناء بغداد الأكبر،وكذلك ملتقى (السقائين). ثم تلي شريعة سبع أبكار على تخوم جسر الأحرار حيث كانت تقبع هناك قصور بيت الباججي ،ثم تليها شريعة خان التمر أو (الوالي)،ثم رأس الكرية (بيت دله)،ثم شريعة المحكمة الشرعية التي كانت ميناء لبالات الصوف،ثم شريعة المصبغة المجاورة لعمارة الدفتردار،ثم شريعة رأس الجسر،والى الشمال من جسر الشهداء الذي يقع على أثر الجسر العباسي الذي كان يطوف على الزوارق،لذا سمي بالجسر العتيق،تقع شريعة المكتب التي يعبر منها أهل الكرخ، وشمالها تقع شريعة البوزخانة نسبة الى وجود مصنع للثلج يعود لمدحت باشا عام ١٨٧٠ ثم تأتي شريعة المجيدية،ثم يختم ذلك المهرجان لتواشج الأحياء والماء بشريعة نجيب باشا ،تيمنا بأسم أحد الولاة العثمانيين،وتقع بين الصرافية والأعظمية.

وثمة مسنايات وشرائع تخص البيوت التي ورثت القصور العباسية والبويهية والسلجوقية ،وأقيمت عليها،مثل شريعة بيت النقيب وشريعة مناحيم دانيال التاجر اليهودي، وشريعة القنصلية البريطانية وبناية الحاكم العسكري المقابلة لبناية حسو آخوان، وهي إمتداد لشرائع الكرخ مثل شريعة خضر الياس التي يقدسها البغداديون وشريعة جامع قمرية خاتون، وشريعة باب السيف.

ونقلت كتب التراث بأن وسائل النقل في بغداد على نوعين رئيسيين هما الدواب والقوارب، وكانت دجلة بغداد تزخر بضروب السفن والمراكب،تروح وتجئ. فمنها: الزبازب والطيارات والزلالات والحراقات والسيميريات (ربما وارد من أسم سومر)،والشبارات والحديديات والشذاءات والخيطيات وغيرها من سفن النهر التي كانت معروفة حينئذ.وقد كان أهل بغداد يعتمرون قلنسوة سميت بالدنّية ويقول عنها الشربشي في شرحه للمقامة التاسعة للحريري: أن أصلها متأت من الدنينه وهو أسم سفينة ليس من كلام العرب وإنما الألفاظ المستعملة في العراق(ويعني آرامية)، بما يؤكد عمق جذورها . وكان أهل الحيثيات يتفننون ببناء السفن ويغالون في إتقانها، ويبدعون في تزيينها ونحتوا بها أشكالاً حيوانية.ومن أكثر من غالى الأمين العباسي (خلافته ٨٠٨-٨١٣م) حينما عمل خمس حراقات على أشكالا تحاكي الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، كما أتخذ السفن الغرابية والجرادية والكوثيرية. وذكر مؤرخو بغداد أنه كان لدور الشط أبواب الى شوارعها، وعلى كل باب مراكب مسرجة مهيأة لركوب الشط. كما أن بين أيدي رواشنها خيطية أو زيزب لركوب الشط.

ومن سوء طالع بغداد أنها لم تحتفظ إلا بثمانية معالم من ماضيها العباسي، أما جسور بغداد المرتبطة بمائه، فلم يبق منها أي جسر، لأنها لم تكن ثابتة في مكانها أو مبنية من حجارة، فقد كان جميعها مصنوعاً من المراكب النهرية المربوطة مع بعضها على شكل سلسلة طويلة. ويبدو أنه لم تكن عند المهندسين العباسيين التقنية اللازمة لتشييد مثل هذا الجسر الثابت على امتداد حوالى ٣٥٠م (وهو عرض نهر دجلة) بين باب السيف في الكرخ ومسناية المستنصرية في الرصافة. واقتصرت الجسور الثابتة في تلك الفترة على مسافات، أو أنهار، أو مجار مائية لا تزيد عن ٢٠-٢٥ متراً. والجسر العتيق الذي كان يربط طرفي بغداد (الرصافة والكرخ) قروناً طويلة ظل في موقعه الأصلي إلى أن استبدل بجسر حديدي ثابت في عام ١٩٣٩ (جسر المأمون سابقاً، والشهداء حالياً). وكان جسر بالمواصفات نفسها يربط الكاظمية بالأعظمية، لكنه رفع في الخمسينيات لبناء جسر الأئمة محله.ويتذكر المسنون كيف كانت تقام طقوس الاحتفال حينما يعاد الجسر لمحله،بعد كل إنقطاع بسبب الفيضان، ويحضر العامة للاحتفاء بذلك.

ولجت بغداد القرن العشرين مهانة ذليلة، بعد قرون الترك العجاف،التي تربت في كنفها أجيال ممن غاب عن خاطرهم مجدها الغابر، وأمست بغداد منفى للولاة العثمانيين، ثم غنيمة لحاشياتهم ومرتعاً للأفاقين والمرابين ومتعاطي (البخشيش) من طبقتهم. وأستحوذت صفوة القادمين على جنبات النهر البغدادي ومسناياته وشرائعه، و حرمت المدينة من مشيميتها مع الجرف.ثم تبعتها سنوات الحكم الملكي التي نهجت المنهج ذاته، وتلتها سنوات الاضطراب بعد ثورة تموز ١٩٥٨، التي كادت تكرس بصيص أمل ومشروعاً نهضوياً واعداً. لكن عقود البعث العاقة أجهضت المشروع و أجهزت على علاقة بغداد بالنهر،وأمسى حوزة لصدام وقصوره.

لقد رام مخطط المدن الأمريكي اليوناني الأصل دوكسيادس في أواسط خمسينيات القرن العشرين أن يجد حلا مناسبا لتوسعة بغداد ورصد بلماحية فذة شغف البغداديين الجم بصفحة الماء، وتلمس عدم رغبتهم في الابتعاد عنها ،ما دعاه إلى إحياء نهر (الخير) في الكرخ و شق نهر قناة الجيش بشكل وتر مستقيم بين أعالي النهر شمال بغداد و نهر ديالى قرب الرستمية على مقربة من مصبه في نهر دجلة، ليتسنى له بعدها أن ينقل كتلة أحياء المدينة إلى عمق البر البغدادي وهو ما تمخض فعلا عن إنشاء كل الأحياء الجديدة بشكلها الخطي ،الموازي لمجرى النهر عن بعد. وبالرغم من جدوى هذه الفكرة وحذقها في تخفيف الوطأة عن المركز التاريخي للمدينة ، لكنها لم تجد نفعا بيئويا ، وتنحصر قيمتها على التأثيرات النفسية للسكان فقط ، ناهيك عن سذاجتها عندما أختار لقناة الجيش شكلا وتريا بما لا يتماشى مع سجية الأنهار العراقية الملتوية ،والتي تخلق بعدا بصريا وجماليا يمكن أن يستثمر بحذاقة في التخطيط الحضري والمعماري. كما هو التواء نهر دجلة في شبه جزيرة الجادرية التي أحسن المعمار الألماني فالتر كروبيوس عندما اختارها في إرساء موقع جامعة بغداد في الخمسينيات قبل أن يصادرها المنعمون الجدد في سلطة البعث.

ومن مثالب خطة دوكسيادس أنه أعطى ظهر مدينة بغداد إلى النهر، وهي هفوة لا تغتفر حينما فتح الباب على مصراعيه لاحتكار صفحة الماء من طرف الصفوة وحرمان العامة.وقد تكرس ذلك إبان سلطة البعث حينما أستثمرت الهفوة بغريزة البدوي المغتنم ،و احتكرت جبهة النهر لبناءات أهل الجاه والمقربين من عائلة وحاشية السلطة. وبذلك قتلوا الروح المرهفة والانسجام الأزلي لبغداد والنهر. ومن أجل تطوير تلك الظاهرة يمكن ان يشرع في فتح قنوات عمياء أو نافذة شاقولية على مجرى النهر أو كري سواقٍ دارسة ،لتشاد على جرفها الأحياء السكنية، وتحف شاطئها المماشي الموشاة بالنخيل والخضرة ومراتع لعب الأطفال وأماكن تجمع العامة. وتقطع ذلك المنظور سلسلة القناطر العابرة تلك الترع الصناعية الناقلة للحياة من ضفة إلى أخرى ،والرابطة بين أجزاء المدينة دائريا،بما يحاكي أنهار العشار في البصرة،والمشروع برمته ممكن وسهل التخطيط والتجسيد.

ومازال يتذكر المخضرمون نشاط عائلة لنج منذ نهاية القرن التاسع عشر وأرصفة نقل وتفريغ السلع ،ويحكون عن الزوارق والقفف حينما أزدحم النهر بحركتها . ويمكن أن تكون تلك الذكرى بؤرة حل في إحياء تلك الأعراف الموروثة في سجية المدينة العراقية،لاسيما بما يتعلق باستثمار النقل النهري للناس والبضائع والذي يمكن أن يكون حلا معاضدا لحركة النقل الفوقي والتحتي لمستقبل العاصمة.

ومشروع كهذا يتم الإعداد له من خلال خطة منهجية مستلهمة من المدن المائية وقدوتها أهوارنا ومثالها مدينة البندقية الإيطالية أو ستوكهولم.حيث يشرع في تسيير خطوط للسفن الآلية السريعة بما يتطلب ذلك تخطيطاً مسبقاً لمراسٍ ثابتة تكتنفها محطات توقف مخططة بعنايةٍ يعد لها برنامج حضري ومعماري غني يسطر للجدوى حيزا، و يتضمن الأخذ باعتبار المعطيات البشرية والجغرافية والبيئية والجمالية والاقتصادية لخطط المدينة ،ويفضل أن يكون مسترسلا من تراثها النهري أي شرائعها المألوفة ومحتفظا بأسمائها التاريخية.

ثم تزود تلك المحطات العائمة والمعلقة والمرتكزة في شاطئ الماء بتقنيات النقل العمودي الحديثة من مصاعد وسلالم بين المراسي و مستوى الشوارع المحيطة بالنهر وتتوفر فضاءاتها على مساحات الانتظار المهيأة بعناية بحيث يمكن أن تكون مواقع للنزهة والتمشي والتبضع والتمتع بمنظر النهر والمدينة، يمكن أن تزود بمواقف للسيارات في المحطات الطرفية للحد من ولوجها إلى مركز المدينة والتخفيف من وطأة الازدحام المروري،تقع مثلا في الزعفرانية من جهة الجنوب والكريعات أو الجديدة من جهة الشمال . ويمكن أن تحدد خطط مرحلية تتطور تباعا لإرساء تلك المحطات ، تبدأ بأقلها ثم تتوسع، وتعمل محطات تخدم حركة نقل الحافلات إبتداء من حي الشعب وتعمل توقفات في الكاظمية والأعظمية والشالجية والصرافية وباب المعظم وشارع النهر والباب الشرقي وأبو نواس والكرادة والجادرية وتنتهي بالدورة ثم الزعفرانية وجسر ديالى.ويمكن أن يتطور هذا إلى شبكة للنقل إلى المدائن المتاخمة لبغداد كسامراء وتكريت والصويرة والكوت وديالى مثلا.ويمكن أن يتضمن المشروع خطة للتنسيق مع حركة النقل الدائري والأفقي للمدينة الذي سوف تضطلع به حركة قطارات معلقة أو مطمورة بهيئة مترو الأنفاق بطريقة دائرية وشعاعية تحد من ازدحام المدينة . لذا يمكن اعتبار هذا المشروع حيويا ،بعدما يعد له بحكمة وصدق نية وينفذ على مراحل و يوظف بعناية في الاستثمار المربح وحركة راس المال وتشغيل اليد العاملة،والأهم في تلك الشجون أنه يعيد للناس ثقتهم بمدينتهم، ويحيي سنناً مائية ويكرس نفحات الجمال التي نحن بحاجة لأشاعتها ويراد منها تهذيب النفوس وجبر الخواطر المتعبة وزرع الفرحة والتفاؤل وتكريس الرفاه الشامل لجميع فئات الأمة، بعد انقشاع الغمة ،وغروب عهد الطغيان والحروب والدمار.

قصة قصيرة

رجل عابر

أنور عبد العزيز

ضحى ذلك النهار من أيلول كان مشرقاً مضيئاً صافياً نشر لمعانه ببياض حمرته المتوهجة على العمارات والبيوت والدكاكين ورؤوس الأشجار وأعمدة النور والعوارض الكونكريتية والمآذن حتى أحتوى ببريقه الفضّي العش الكبير للقالق العائدة من هجرتها البعيدة والتي استأنست سطح القبّة المتهدمّة المهجورة لصق الجامع القريب ، غير أن حظ تلك المقهى المنزوية في عطفه الزقاق المنسي كان شحيحاً ولم تنل ظلمته وبأمتداد عمقه المعتم غير نثار من خيوط متقطعة ونقطة من ضوء مكشوف حملته ذرات من مسحوق غبار ناعم بدا واضحاً في مدخل المقهى وكان أشد بريقاً عندما اجتاز فضاء المقهى ليذوب في شروخ ونتوءات جدران الجصّ السميك المنخور الذي لم يبق من نثار قشرته الميّبسّة غير ذؤابات مهتزة تتساقط من أقل لمسة أو هبّة هواء ... لم تكن تلك المقهى تختلف بشيء عن المقاهي المتهالكة في الشارع الرئيس وربّما كان ما يميزّها فقط هو عتقها وحميمية الوجود لروادها مع هذا المكان المنزوي الأليف ، كانت صامتة هادئة عارية من أيّ اجهزة مرئية أو صوتية وبمصباح كهربائي شاحب وحيد ومروحة مترنحّة . لم تكن تلك المقهى معروفة بغير شهرة شايها وفنون لاعبيها بالدومينة..

عندما أنكشف وجوده بمشيته الوقوره المتعبة وبملبسه المبقّع بحبّات من أسمنت متجّمد وتلوينات تشكيلّية لخطوط جصيّة متعرّجة التصقت برقبته وشعر صدره الكث وقميصه وبنطلونه الممتد لحذائيه .. أجتاز المقهى ليحطّ بتعبه وعجزه ووجهه الشاحب المعرق على المقعد الحجري في عمق المقهى ، بعد ان ارتوى من الماء واناخ بثقل ظهره على الجدار المتشقق ، كان وقد أستقر أشبه بكيس أسمنت نفضه ظهر حمال مكدود ... وكما يفعل النادل مع كل قادم ، فقد وضع أمامه وبسرعة قدح الشاي وهو يتأمل وجه القادم الغريب . أرتبك الرجل منتقضاً وهو ينظر لقدح الشاي ، قال للنادل : أزحه ، أرفعه عني فأنا لم اطلب شاياً ، قالها بأضطراب وخجل وأرتباك ، فوجيء الحضور الصامت بقولة الرجل : (ليس معي نقود)، قولة الرجل نبهت وحفّزت أبعد الحاضرين لسماع عبارته ، غير آنه لم يمنحهم فرصة لمزيد من الكلام وأنفجر فجأة ببكاء مخنوق لم يستطع السيطرة عليه ، أستجاب النادل لطلبه ورفع قدح الشاي غير أن اعتراض الحاضرين على تصرّف النادل وحمقه وأستعجاله أعاد القدح أمام عينيه ، لحظة صمت الرجل وسكن في عينيه البكاء ، بعدها حصل ما آثار المقهى ، فقد عاود الرجل البكاء وبنشيج حزين ، المشهد غريب ، رجل في الستين من عمره وربّما اكثر يحمل معه حقيبة عتيقة متهرئة مجعّدة الحواف كان قد وضعها بين رجليه، حوت بعض أشارات لأدوات بنّاء (شاقول وميزره وميلج) ، ومعها ظلّ يبكي ، صمت المقهى استحال إلى ألم واضطراب وأشتباك في متاهة من التعليق والتفسير والتأويل ، نادل المقهى كان الأكثر حزناً بجموده أمام الرجل الباكي ، صفرة مسحت صفاء وجهه وهو يتأمل الرجل ويرى مافعله الأهوج بسبب ثمن بسيط لقدح شاي ، كان يبدو كمن يقرّع روحه ويقتص من فعلتها الدنيئة ، صاحب المقهى لم يتحرك من مكانه وظلّ ساهماً بحيرته أمام هذه الحالة .. شرب الرجل شايه على عجل ، وصار يهمهم بعبارات ما زالت مغسولة بدمعه .. صوت من مقعد حجري بعيد عن الرجل المحزون جاء قوياً وعميقاً : (دعوه يبكي ليطفيء جمر الروح). ، لم يعقب احد . ، صوت ثان جاء خافتاً ومعزولاً : (هذا رجل بطران ، تكفينا همومنا) ،نبرة هذا الصوت جاءت باردة ومستهجنة رفضها الحضور. ، صوت ثالث (قدح الشاي كان حجّة وهذا الرجل مجروح بفاجعة كبيرة). صمت المقهى لهذا التعليق وأزداد كآبة .. الرجل ذو البكاء الغريب وفي زحمة تعارض الأصوات التي أثقلت عليه أنسل من المقهى أشبه بهارب محتضناً حقيبته وبقية دمع في العيون .. رغم خلو المقعد الحجري من رجل البكاء فقد أستمّرت الأصوات تترى لتكشف سرّ الرجل ، زعق أحدهم :

(عدّة الرجل تكشف أن صاحبها بنّاء ، واذا كانت جيوبه قد خلت من ثمن شاي فلماذا دخل المقهى؟ ، أناس ما توا وهم جياع أو عطاش ولم يستهينوا ويهدروا كرامتهم ، هذا المخلوق لا يستحق عطفكم وهو تافه حتى لو ظلّ يبكي لآخر الزمان). ، صوت جديد دعم هذه الملاحظة : (اللعنة على الشاي والسجاير اذا صارت سبباً في ضياع الانسان). ، غمغم شاب رياضي وسيم أخضر العينين مقطوع اليد : (لو رويت له بعض ما عصف بنا وماشاهدته في الحروب لخجل من نفسه وبكائه وخرس الدمع وتجّمد في عينيه)، وكان يرسم قوله بأرشادات منفعلة مرتجفة من أصابع يده الوحيدة .. شاب نحيف أقتعد كرسياً متحركاً بعد ان التهمت الحرب رجليه الأثنتين وقد أدمنته الحروب في وهج العمر وهو الآن مدمن على الدومينه ، لم يبك يوماً ، فقط عندما يتصلّب وجهه نعرف أنه دخل في حالة ذهول مسترجعاً متذكراً رأس صديقه الجندي مقذوفاً متلألئاً يشخب بدمه الطريّ معانقاً طيور السماء .. لم تنقطع الأصوات : (اذا كان هذا المنكود قد خسر عمل يوم وراح يبكي عليه ، فماذا أقول أنا الشاب وقد هتك وهرس المقعد الحجري الخشن بنطلوني ومؤخرتي لسنوات من البطالة ومع الحر اللافح والبرد المتجمد والضجر واليباس في نفق هذا المقهى المظلم الكئيب) ... صوت غاضب ادان الأقوال الرافضة لسلوك الرجل : (هذا بنّاء ورجل عمل لا يحتمل مثلكم البطالة ، أنتم بصدور بلا قلوب ، ربّما بكى الرجل لفرصة عمل ضاعت منه وهو ينتظرها في المسطر منذ الفجر وحتى ارتفاع الضحى). مع صخب الأصوات وعجزها عن التعليل تنهد صوت ضعيف : (أنتم تتجنون على هذا العابر ، تعرفون كلكم مواجع زمني ، واقسم أن بكاء هذا الرجل كان يحمل اطناناً من الهموم داخل بيته وروحه وقلبه وجسده ، مشكلة هذا الانسان . ليست شهوة شاي مع جيوب خاوية ، أنتم تبسطّون الأمر؟! فأنين نشيجه كان شيئاً مغايراً لأيّ حزن وبكاء). أستمرت الأقوال تكرّ وتتكرر لا يطفئها غير الأحتجاجات على خروقات أصول لعبة الدومينه وعند احتدام الضربات الذكية الماهرة المتسارعة لحسم النتيجة الباهرة .. وعندما عاد الألحاح لحكاية رجل الشاي وصار سبباً في إيقاف اللعب أخذ يعلو صوت رجل متهوّر مستهجناً ضاجّاً مستنكرا تعطيل اللعبة : لوكنت مكانه لشربت المرّ والزقّوم وأطفات بهما شهوة الشاي الدنيئة قبل ان ادلف للمقهى كلص بجيوب ليس فيها غير الهواء الراكد)، وزاد آخر : (هذا رجل متبطر ومحتال مثل عليكم حكاية انسان ضائع ومحزون ، مثله لا يستحق كلمة تعليق) .. صوت هادىء بنبرة عقلانية رغم وضوح الضجر فيها : (حالكم صار كمن يبحث عن دبوس في كثبان رمل هائجة متحركة في سراب صحراء شاسعة ربمّا كان الرجل متعباً ودخل ليستريح فقط ومع طلبه رفع القدح ، خطف النادل القدح وفعل فعلته ، الرجل كان مرهقاً حدّ الأعياء ولم يلبث غير دقائق ،وانتم الآن تتجمعون عليه بكل هذه الشكوك).

صوت هادىء أنيس لجليس غير مكترث بالواقعة : (هذا الرجل لو سار في طريقه ولم يدلف لمقهانا لأراحنا من كل هذا اللغو والثرثرة) ..

الأصوات الزاعقة والرافضة للبكاء خفّفت من حدتها وتهجمها بعد أن أدانت قول ذلك الشاب النزق : (هذا الرجل لايستحي)، وبعد أن سمعت قول آخر : (ذلك البائس لم يحترم عمره ومهنته ورجولته) .. الأصوات المستأنسة أستحالت لحوارات رحيمة وعقلانية ، ورغم ان ساعات مرّت على مغادرة رجل المشكلة ، فان المقهى ظلّت منشغلة بما حدث ، صاحب المقهى ظلّ ساهماً غائباً عن أيّ حوار وتعليق وكأن ما جرى قد حدث في مقهى آخر ، النادل المهموم ظل منطوياً ملموماً على نفسه متحسساً أنه هو فقط كان السبب في تلك الواقعة وأن تعامله مع الرجل الغريب كان شائناً ومعيباً وهو يتذكر كيف رفعت وخطفت أصابعه كمخلب باشق القدح من امام الرجل الذاهل: (تلبستني غواية شيطان فما قيمة قدح شاي وانا أصب كل نهار مئات الأقداح) !

رغم مرور أيام وشهور على تلك الواقعة الحزينة الكئيبة ، فأنّ تقولات وتعليقات كانت تتجدد مع كل حوار بين اثنين وأكثر ، بقيت أرتسامات ذلك المشهد الغريب أمراً محيراً لم يألفوه مع أكثر المتسولين ذلاً .. مرّ زمان وتاهت ملامح الرجل العابر وذلك الضحى في ذاكرة المقهى ، بهتت صورته وجلسته المضطربة ودموعه وتسلله الهارب وانمحت هيأة تلك الحقيبة العتيقة المكرمشة الحاملة لأدوات البناء ومعها ضاعت وتاهت أقوالهم واحكامهم وتفسيراتهم المتناقضة وحيرتهم مع لغز ذلك الضحى ، فرغم ذلك الحدث وتطاول سنيّ العمر ، فان عجزاً فاضحاً في التأويل وكشف السبب ظلّ هاجساً في عقولهم وفضولهم بانهم لم يقتنصوا أو يصلوا للسّر الخفّي والمستور الذي أهاج الكهل الوقور بكل ذلك البكاء ..